شرح

العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

شرحها

الشيخ/ توفيق الصائغ

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا وإمامنا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحابته وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد:

اللهم يا معلم إبراهيم علمنا، ويا مفهم سليمان فهمنا، اللهم إنا نسألك علمًا نفعًا ورزقًا واسعًا وقلبًا خاشعًا ولسانًا ذاكرًا، اللهم إنا نسألك أنْ تيسر لنا بما سلكناه طريقًا إلى العلم أنْ تيسر لنا به طرقًا إلى الجنة إنك على كل شيءٍ قدير.

نعوذ بك أنْ نشرك بك شيئًا ونحن نعلم، ونستغفرك من الذنب الذي لا نعلم.

وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خيرِهِ وَشَرِّهِ.

الشرح

شرع شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- في بيان اعتقاد الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، فقال -رحمه الله تعالى-: (**وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خيرِهِ وَشَرِّهِ**).

ومر معنا في المجلس السابق شرح ما يتطلب شرحه في قضية الإيمان بالله، وأرجأنا تتمة الكلام عليه؛ لأنّ صلب هذه الرسالة هو فيما يتعلق بالإيمان بالله، وتحديدًا فيما يتعلق بقضية الإيمان بالأسماء والصفات، إذ هي لب الرسالة وعنوانها العريض.

وتكلمنا كذلك فيما يتعلق بالإيمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وأظن أننا وقفنا عند قضية الإيمان بالقدر خيره وشره، وفي كل ما مضى هناك قاعدة: أنّ ثمة إيمان منفصل وإيمانٌ مجمل، الإيمان المجمل يلزم كل أحد، وأما الإيمان المفصل فلا يلزم إلا أولئك الذين علموا التفصيل.

يعني أسماء الرسل والأنبياء التي وردت في القرآن خمسٌ وعشرون نبي ورسول، هؤلاء ينبغي أنْ نؤمن بهم إيمانًا مجملًا ومفصلًا، مَن لم يقرأ القرآن من عوام المسلمين فيؤمن بأسماء مَن يعرف أسماءهم، ومَن لم يطلَع أو يصل إليه العلم فإنه لا يلزمه ذلك.

إذًا قلت لعلنا وقفنا عند قضية الإيمان بالبعث، وذكرنا الإيمان بالأنبياء وبالرسل وبالملائكة وبالكتب، منه ما هو مجملٌ ومنه ما هو مفصل، أما المجمل فيلزم كل أحد، والمفصل يلزم مَن علم بهذه التفاصيل، فمَن علم واطلع وجب عليه الإيمان بالتفصيلات التي عرفها، أما عوام النَّاس وعوام المسلمين فإنهم لا يطالبون بالإيمان المفصل لقصور علمهم عن ذلك.

قال -رحمه الله تعالى-: ومن أركان الإيمان التي يؤمن بها أهل السنَّة أهل الفرقة الناجية والطائفة المنصورة الإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالبعث بعد الموت هو ضمن الإيمان باليوم الآخر، ومر معنا أنّ هذا من الإيمان بالغيب، ثم قال بعده: (**الإيمان بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**): والإيمان بالقدر معناه أنْ يؤمن العبد جازمًا ويعتقد ويصدق أنّ الله -سبحانه وتعالى- قدَّر الأقدار وخلق مقادير كل شيءٍ -سبحانه وتعالى- قبل خلق السماوات والأرض.

ويؤمن جازمًا ويصدق أنّ ما يحدث في الكون يقع تحت علم الله -سبحانه وتعالى-، ويقع بمشيئته وقدرته، وأنه لا يقع في الكون شيءٌ لم يشأه الله -سبحانه وتعالى- ولم يرده، وكأنّ الشيخ -رحمه الله- سيتحدث عن هذا الركن بالتفصيل في هذه الرسالة، لكن ينبغي ذِكر القواعد أو المراتب التي ينبني عليها القدر.

معلومٌ أنّ الإيمان بالقدر هو سر الله تعالى، لكن كلما أدرك العبد المراتب التي ينبني عليها القدر كلما سهل عليه فهم المراد، وهي مجموعةٌ في قول الناظم:

علـــــمٌ مشـــــيئةُ مـــــولانا وقدرته وخَلْقُه وهو إيجادٌ وتفصيلُ

يعني: أنْ يؤمن العبد **أولًا**: أنّ الله -سبحانه وتعالى- علم كل شيء، أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، فالله -سبحانه وتعالى- قبل الكتابة علم كل شيء، ثم خلق القلم فقال له: اكتب.

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئةُ ... وخَلْقُه وهو إيجادٌ وتكوينُ

علم -سبحانه وتعالى-، ثم كتب كل شيءٍ، ثم شاء الله -سبحانه وتعالى-، ثم تحققت هذه المشيئة بالخلق، ربما يكون هذا الكلام فيه شيءٌ من الصعوبة على الفهم، سأبينه بالمثال الذي أرجو أنْ يتضح به المقال.

إذا قلنا: مثلًا إنّ هذا الدرس الذي وقع في هذا اليوم (يوم السبت) بهذا التاريخ، هذا الدرس عِلِم -سبحانه وتعالى- بوقوعه ليس اليوم ولا أمس، وإنَّما قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، هذا هو العلم، يعني هذا درسنا اليوم درس العقيدة الواسطية علمه الله -سبحانه وتعالى- قبل أنْ نخلق نحن، وقبل أنْ يُخلق آباؤنا وأمهاتنا، قبل خلق السماوات بخمسين ألف سنة.

ثم بعد هذا العلم خلق الله القلم فأمره أنْ يكتب كل شيء، فكان مما كتب الله -سبحانه وتعالى- بحسب علمه السابق أنه ستقع أشياء من ضمنها هذا الدرس.

إذًا هذا العلم سابق جدًّا الكتابة سابقة جدًّا، ثم مرت السنين وجاء الوقت الذي شاء الله -سبحانه وتعالى- أنْ يتحقق هذا العلم وذلك المكتوب فشاءه -سبحانه وتعالى-، شاء أنْ يقع هذا الدرس لو لم يُقدِر الله ما كنا لندرس أو ندِّرس، شاء الله -سبحانه وتعالى-، ثم في الساعة التي شاءها خلقه فصار واقعًا.

ويسحب عليه كل شيء بعثة النبيّ -عليه الصلاة والسلام- كانت في علم الله السابق؛ لأنّ علم الله محيط بكل شيء، "فالله -سبحانه وتعالى- علم ما كان، وما يكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون"، حتى هذه العبارة قد تشكل على البعض، "علم ما كان" واضح يعني علم الماضي كله -جل وعلا-، و"علم ما يكون" أي: ما يقع الآن، ما يقع الآن مختلف، ما يقع في السعودية، ما يقع في مصر، ما يقع في ليبيا، ما يقع في الجزائر، ما يقع، كل هذا يعلمه الله -سبحانه وتعالى-.

كل هذه الحوادث التي تجري في ذات اللحظة مع تعدد الأماكن وتعدد الفاعلين وتعدد المفعولين يعلمها -سبحانه وتعالى-، فعلمه ليس مقتصر على الماضي فقط، وليس مقتصر على المستقبل فقط، وليس مقتصر على ما

معهد العلوم الشرعية العالي

يقع الآن الحاضر فقط، وإنَّما علمه -سبحانه وتعالى- محيطٌ بما كان وما يكون وما هو كائن، ويقول أهل العلم: وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون سأفسرها الآن.

اليوم لنقل أنه يومٌ صحو يعني هذا اليوم لم تمطر فيه السماء، لو كانت السماء أمطرت في هذا اليوم ما الذي كان سيحدث؟ كانت ستغرق الشوارع مثلًا، كانت سيلطف الجو، كان سينتفع بهذا الماء أقوام، كان سيتضرر به أقوام، هذا الذي لم يكن لو قُدِر وقوعه فإنّ الله سيعلم ما يقع حال وقوعه، اليوم صحو لكن لو كان ممطرًا فإنّ الله -سبحانه وتعالى- يعلم ما أثر هذا المطر على النَّاس وتلقيهم له إلى آخره، أرجو أنْ تكون قد وضحت هذه.

إذًا أول مرتبة من مراتب القدر: العلم:

علم الله الشامل الكامل، علِم كل شيء -جل وعلا- لا يعزب عن علمه شيء، لا تند عن علمه ذرة -جل جلاله-، بعد العلم الكتابة، بعد الكتابة يعني في الكتاب الذي كتبه الله -سبحانه وتعالى- أشياء لو صحَ أنْ نسميها مثلًا هي مجدولة، فبعثة النبيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قبل وقوعها كانت مجرد علم، ثم كانت شيئًا مكتوبًا، فلما جاءت السنة التي أراد الله -سبحانه وتعالى- أنْ يبعث فيها نبيه تحققت هذه البعثة وأصبحت واقعًا.

فانتقلت من العلم يعني بين قوسين كما يسميه البعض (النظرية) من العلم إلى الواقع إلى التطبيق، فأصبح شيئًا مرئيًا، هذه مراتب القدر التي تحل كثير من المشكلات، الذي تنضبط عنده هذه المراتب يخرج من حيرة القدر.

لذلك المشركون يقولون: لو شاء الله ما أشركنا، فكأنهم يزعمون أنهم أجبروا على الشرك؛ لأنهم لم يعلموا هذه المراتب، وهناك مَن يحتج بالقدر، فيقول: أنا قدري أنْ أكون فقيرًا، قدري أنْ أكون عقيمًا، وهذا أيضًا احتجاجٌ لا يصح، فالقدر لا يفعل في الإنسان.

الله -سبحانه وتعالى- مقدر الأقدار، يعني ليس العبد الذي يخلق فعله، وليست الأقدار هي التي تجبر الكافر على أنْ يكون كافرًا، والمطيع على أنْ يكون مطيعًا؛ لأنّ الله -سبحانه وتعالى- حين كتب ذلك لم يكتبه على هيئة الإجبار كما يفهم العامة.

العامي مثلًا يقول: أنا والله فقير مكتوب علي أنْ أكون فقير، فيعيش في دائرة الفقر ولا يسعى لتغيير حاله، كونه كتب عليك أنْ تكون فقيرًا ليس معناه -بلغة العوام- أجبرت عليه، لكن سبق في علم الله أنك فقير، وأنت مطالب حال فقرك أنْ تسعى لإزالة هذا الفقر عنك، كما يطالب الجاهل برفع الجهل عنه.

وعليه فلا حُجَّة لأحدٍ بالقدر؛ لأنّ الله -سبحانه وتعالى- هدى الإنسان النجدين، ووفقه للطريقين، ثم يبقى خيار الإنسان بعد ذلك إما أنْ يهتدي اختار طريق الهدى، وإما أنْ يضل والعياذ بالله ويختار طريق الضلالة.

ذَكَر -رحمه الله تعالى- هذه الأركان، ثم الدليل على هذه الأركان قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾[البقرة:١٧٧]، وقول الله تعالى فيما يتعلق بالقدر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

ومر معنا دليله من السنَّة حديث عمر -رضي الله عنه- أو حديث جبريل حين جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في هيئة رجل، قال: **(أخبرني عن الإسلام وعن الإيمان)**، وعدد له النبي -صلى الله عليه وسلم- أركان الإيمان.

السؤال: لماذا ذَكَر شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- في أول اعتقاد الفرقة الناجية هذه الأصول الستة أو أركان الإيمان الستة؟

لا، ليس لأنها هي التي عليها الاختلاف، هو الاختلاف في جزئيات هذه الأصول، ذَكَر شيخ الإسلام هذه الأصول؛ لأنها أصول أهل السنَّة، معنى ذلك أنّ المبتدعة أو المخالفين لأهل السنَّة لهم أصول غير هذه الأصول، أما المعتزلة فأصول الإيمان عندهم خمسة، أهل السنَّة السلف -رحمهم الله- أصول الإيمان عندهم هذه الستة، **المعتزلة أصول الإيمان عندهم خمسة حتى تُسمى الأصول الخمسة عند المعتزلة ستمر معنا كثيرًا هي:**

١. التوحيد.

٢. والعدل.

٣. والأمر بالمعروف.

٤. والنهي عن المنكر.

٥. والمنزلة بين المنزلتين.

٦. وإنفاذ الوعيد.

تلاحظون أنّ هناك فرق بين اعتقاد الفرقة الناجية وبين اعتقاد أهل الاعتزال، وأما الرافضة فعندهم الأصول لا هي خمس ولا هي ست، **وإنَّما الأصول التي تنبني عليها العقائد عندهم أربعة وهي:**

١. التوحيد.

٢. والعدل.

٣. والنبوة.

٤. والإمامة.

فذَكَر –رحمه الله تعالى– أصول المعتقد عند أهل السنَّة حتى يمايز بينهم وبين المبتدعة.

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ. صلى الله عليه وآله وسلم. مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ.

الشرح

ثم قال -رحمه الله تعالى-: (وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ -صلى الله عليه وآله وسلم-).

لما كان الركن الأول من أركان الإيمان: هو الإيمان بالله -تبارك وتعالى-، **وكان هذا الركن يتضمن ثلاثة أمور:**

١. إيمانٌ بالله من جهة الربوبية.
٢. وإيمانٌ بالله من جهة الألوهية.
٣. وإيمانٌ بالله -سبحانه وتعالى- من جهة الأسماء والصفات.

اطرح -رحمه الله تعالى- ما ليس بصدد بيانه وهو توحيد الربوبية، ولا بصدد بيانه هنا وهو توحيد الألوهية، وإنَّما ذَكَر توحيد الأسماء والصفات؛ لأنه الذي احتاجه الشيخ الواسطي أو القاضي الواسطي الذي طلب من الإمام ابن تيمية أنْ يكتب له هذه العقيدة؛ ولأنه هو الذي وقع فيه الخلاف في عهد شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-، واختلفت فيه طوائف أهل السنَّة والمتكلمين، وصار بينهم جدالٌ كثيرٌ ونزاع.

فخص هذا الباب وهو مجمل كلامه في هذه الرسالة، وكل كلامه في الرسالة التدمرية، وكل كلامه في الرسالة الحموية الإيمان بالصفات والأسماء لله -سبحانه وتعالى-.

قال: (وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ -صلى الله عليه وآله وسلم-).

إذًا الله –سبحانه وتعالى– له أسماء وله صفات، فأول ما يُفهم من كلام شيخ الإسلام هنا أنّ الله –سبحانه وتعالى– له صفاتٌ قائمةٌ به، وأنه يوصف –جل وعلا– بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به نبيه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وهذه الجملة تعطينا لفظًا مختصرًا يتردد على لسان العلماء وأهل العلم وهو أنّ أوصاف الله تعالى توقيفية، أسماء الله تعالى توقيفية.

ومعنى قولنا: "توقيفية" أننا نتوَقف فيها على النص على السماع، لا يجوز أنْ نخترع لله أسماءً ولا أنْ نبتدع له صفاتًا، وإنّما نقف عند الحد الذي سمعناه عن كتاب الله وعن سنَّة رسوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وعليه فيكون مصدر توحيد الأسماء والصفات هو الكتاب والسنَّة وحسب، لا نعدوها إلى غيرها، يعني ما ينفع في باب الأسماء والصفات أنْ نقول: الكتاب والسنّة والإجماع والقياس لا لا، هذا يصلح في الفقه، أما في هذا الباب تحديدًا فنقف فيه عند حد السمع وهو الكتاب والسنَّة.

لماذا كانت أسماء الله وصفاته توقيفية؟ لماذا لم يكن للعقل مجال ولا للقياس مجال ولا للإجماع مجال ولا لعمل أهل المدينة تلك القواعد التي يبني عليها الفقهاء فقههم؟ لماذا فقط اقتصرنا على السماع؟

لأنّ الله –سبحانه وتعالى– غيب، فالله –جل وعلا– لم يُر، لم يراه أحد حتى يصفه لنا فيكون عندنا مصدر آخر، لو كان هذا متأتيًا لأصبح عندنا مصدر غير الكتاب والسنَّة وهو مصدر هذا الذي علم صفات الله برؤيته أو برؤية مثيله، وهذا أيضًا غير متأتي حاشاه –جل وعلا–، فالله –عز وجل– لم يُر، وليس له مثيل ليُرى، فأصبح مصدر التلقي عندنا هو الكتاب والسنَّة.

ولذلك قال الإمام أحمد –رحمه الله تعالى–: "**لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ولا نتجاوز القرآن والحديث**"، هذه القاعدة عند أهل السنَّة لا نتجاوز القرآن والحديث.

لكن هناك تفصيل في هذه الجزئية، وهذا التفصيل يقول فيه أنّ باب الأخبار أوسع من باب الصفات، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، سيأتي تفصيل هذا معنا، يعني الله –سبحانه وتعالى– لا يُسمى ولا يوصف إلا بما سمى به نفسه أو وصفه به نبيه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

لكن في باب الإخبار عن الله –سبحانه وتعالى– يمكن أحيانًا تجوزًا أنْ نستخدم بعض الصفات التي لم ترد لا في الكتاب ولا في السنَّة، يجري مثلًا في كلام بعض أهل العلم وصف الله –سبحانه وتعالى– أو الإخبار عن الله –سبحانه وتعالى– بأنه قديم.

طبعًا الأوْلى أنْ يوصف الله بما وصف به نفسه، فقديم هذه تُستبدل بالأول الذي ليس قبله شيء، وقد يصفونه صانع وورد هذا في بعض النصوص، فيكون من باب الإخبار ولا يكون من باب صفة الله –تبارك وتعالى–.

السؤال: إذا ثبت لله –سبحانه وتعالى– اسم في الكتاب أو في صحيح السنَّة هل هذا يجوِّز لنا أنْ نشتق من هذا الاسم صفة؟

الجواب: إذا ثبت الاسم لله تعالى فإنه يُشتق له منه صفة –جل جلاله–، وهذا معنى قولنا إنّ باب الصفات أوسع من باب الأسماء، باب الأسماء ضيق جدًّا باب الصفات أوسع منه، والأوسع منهما باب الأفعال، والأوسع منهم جميعًا باب الأخبار.

مثال ذلك: الله –سبحانه وتعالى– اسمه الرحمن، هذا اسمه **هل يمكن أنْ نشتق من الرحمن صفة لله تعالى؟** نعم، وهي صفة الرحمة –جل وعلا–، اسمه الرحيم يمكن أنْ نشتق له صفة الرحمة من الرحمن ومن الرحيم، الله –سبحانه وتعالى– من أسمائه السميع، إذًا لله صفة السمع، الله –سبحانه وتعالى– اسمه البصير، إذًا نشتق له صفة البصر.

قلنا إنّ باب الأسماء ضيق وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، يعني يجوز لنا أنْ نشتق من الأسماء الثابتة لله تعالى صفةً تليق به –جل وعلا–، كذلك باب الأفعال أوسع من باب الصفات، فإنه قد يأتي يرد عن الله –سبحانه وتعالى– بعض الأفعال التي لا يمكن أنْ أشتق منها صفة.

وهنا ينبغي أنْ نتنبه؛ لأنّ هذا الأمر قد غلط فيه بعض أهل العلم منهم الإمام القرطبي –رحمه الله تعالى–، يعني الله –جل وعلا– حين أخبر عن أفعاله أنه يقع منه الاستهزاء في مقابل استهزاء الكافرين، وأنّ الله –سبحانه وتعالى– يمكر بمَن يمكر بالمؤمنين، وأنّ الله –سبحانه وتعالى– يخادع مَن يحاول أنّ يخادعه، هذه الأفعال التي جاءت على صفة المقابلة لا يجوز أنْ نشتق منها لله –سبحانه وتعالى– لا اسم ولا وصف مطلق.

كيف يعني لا اسم؟ يعني ما يجوز إني أقول: الماكر، ما يجوز أنْ أقول في حق الله تعالى: المخادع، قلت لكم أنّ البعض غلط واشتق لله تعالى من هذه الأفعال أسماءً وهذا غلطٌ كبير؛ لأنّ أسماء الله وسيمر معنا وأنا هنا أشير إلى كتاب عظيم جدًّا، بل هو من أعظم كتب شيخنا العثيمين -رحمه الله تعالى- كتاب [القواعد المثلى في شرح أسماء الله وصفاته الحسنى]، هذا من أوائل الكتب التي ألفها شيخنا -رحمه الله تعالى-، وقد أحسن وأبدع أيما إبداع.

فذَكَر قواعد مهمة جدًّا تتعلق بالأسماء والصفات في هذا الكتاب، من أهم هذه القواعد أنْ نعتقد أنّ هذه الأسماء لها الكمال المطلق في الحسن، وهذه الصفات لها الكمال المطلق فيما تدل عليه، فهل الماكر والمخادع والمستهزئ إذا أطلقت هكذا إطلاقًا تكون صفة مدح أو أسماء يُراد منها المدح؟ لا، أبدًا، وإنَّما المدح أنْ يمكر الله بمَن يمكر بأوليائه أو بمَن يريد أنْ يمكر به.

فهذه الأفعال وقعت على سبيل المقابلة ولم تقع ابتداءً، حتى إذا أردنا أنْ نشتق منها فإننا نشتق منها بقيد مهم جدًّا وهو قيد المقابلة، فنقول مثلًا: الله يخادع مَن يخدعه، الله يستهزئ بمَن يستهزئ به، ولا نصف الله تعالى أو نسميه بالمخادع أو الماكر أو المستهزئ.

كذلك وَرَد في الحديث «**فإنّ الله لا يمل حتى تملوا**»، فهل يمكن أنْ يقول أحد اشتقاقًا من هذا الفعل أنّ الله -سبحانه وتعالى- فيه صفة الملل أو يسميه الملول؟ حاشاه -سبحانه وتعالى- لا أبدًا.

إذًا هذا باب الأفعال وهو أوسع من باب الصفات، ويأتي أوسع منه باب الإخبار عن الله -سبحانه وتعالى-.

فيجوز مثلًا أنْ تخبر بأنّ الله صانع لكونه يصنع، مع أنه لم يرد هذا الاسم، لكن جاء في القرآن ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[النمل:٨٨]، وجاء في صحيح مسلم «**فإنّ الله صانعٌ ما شاء**»، «**إنّ الله صانعٌ كل صانعٍ وصنعته**» كما في روايةٍ أخرى.

فهذا باب الإخبار عن الله -سبحانه وتعالى- وهو بابٌ واسع، يعني يتأتى من هذا أنْ نقول: أنّ أضيق الأبواب هو باب الأسماء، يليه باب الصفات أوسع قليلًا، يليه باب الأفعال أوسع، ثم باب الإخبار عن الله -سبحانه وتعالى- أوسع منهم جميعًا.

هذه كانت قاعدة مهمة حين الحديث عن صفات الله -تبارك وتعالى-، ومن القواعد المهمة أيضًا في باب الأسماء وإنْ كان هنا تحدث عن الصفات، لكن من القواعد المهمة في باب أسماء الله -سبحانه وتعالى- أنْ نعتقد أنّ كلها حسنى، يعني معنى كونها حسنى بالغة الغاية في الحسن، بالغة الغاية في الجلال والجمال والكمال، وأيضًا نعتقد أنّ أسماء الله تعالى لا حصر لها.

قد يقول قائل: ما بال الحديث الذي يقول: «إنّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، مَن أحصاها دخل الجنة»، أليس هذا الحديث بظاهره يدل على أنها محصورة في تسعٍ وتسعين اسمًا؟

من أبسط الردود على هذا الإيراد أنْ يُقال: لو كانت أسماء الله تسعة وتسعين أو مائة اسم، لكان بعض المخلوقين -عياذًا بالله وحاشاه تعالى- أكثر أسماءً من الله تعالى أو شبيهًا بالله تعالى في العدد، فالعرب مثلًا ذكرت للأسد قريبًا من مائة اسم، وذكرت للسيف والهندية ... [٢٩:٤٧] قريبًا من مائة اسم، والله أجل من المخلوق.

إذًا قوله: «إنّ لله تسعةً وتسعين اسمًا»، هذه التسع وتسعين هي التي مَن أحصاها دخل الجنة، وليس معنى ذلك أنّ كل أسماء الله تسعًا وتسعين، بل أسماء الله لا يحصيها إلا هو -سبحانه وتعالى- بدليل أننا نقول في الدعاء: "أسألك بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك".

فما أنزله في كتابه نعلمه، وما علمه أحدًا من خلقه يعلمه هذا الأحد، لكن ما استأثر به في علم الغيب عنده لا يعلمه إلا هو -سبحانه وتعالى-.

فالصحيح إذًا أنّ أسماء الله لا حصر لها، وأنها كثيرة بل هي من الكثرة بما كان، ومما يدل على ذلك أيضًا أنّ المصطفى -عليه الصلاة والسلام- في القيامة حين يتنحى الأنبياء عن الشفاعة يقول: «**فأسجدوا عند العرش، فأثني على الله بمحامد ومثاني يفتحها علي لا أعرفها في دار الدنيا**»، يعني يذكره بأسماء لا يعرفها النبيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في دار الدنيا.

إذًا من قواعد الباب أنّ أسماء الله تعالى كلها حسنى بالغة الغاية في الحسن والجمال والجلال، وأسماءه -سبحانه وتعالى- لا عد لها ولا حصر.

ما معنى قوله: «مَن أحصاها دخل الجنة»؟

أي: مَن حفظها، ومَن عرف معانيها، ومَن تعبد لله تعالى بها، فجعل يسأله بها، ويدعوه بها، ويسبحه بها، ويذكره بها -جل جلاله-، ويحدث عنه بها، فهذا ضربٌ من الإحصاء.

ومن القواعد أيضًا المهمة في هذا الباب أنّ صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين باعتبارٍ معين؛ لأنّ في السبر والتقسيم يمكن أنْ نخرج أكثر من تقسيم، **لكن باعتبار معين تنقسم إلى قسمين:**

- **القسم الأول**: صفات ذاتية قائمة بذاته -جل وعلا-.

- **والقسم الثاني**: صفاتٌ فعلية أي أنه يفعلها -سبحانه وتعالى- متى شاء.

الصفات الذاتية قائمة به، يعني صفة الحياة صفة لازمة له مستمرة ذاتية قائمة بذاته، صفة العلو، صفة القدرة، فالله لا يعجز -سبحانه وتعالى-، وأما الصفات الفعلية فهي التي يفعلها -سبحانه وتعالى- متى ما شاء، منها صفة الغضب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾[طه:٨١]، ومنها صفة المجيء ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:٢٢] وهكذا.

إذًا أهل السنَّة لا يصفون الله -تبارك وتعالى- إلا بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الذي سميناه بالاقتصار على السمع أو بكون الصفات توقيفية.

❖ **من قواعد الباب كذلك:**

أنّ هذه الصفات تنطوي على معنى مدرك، أصل هذا المعنى ندركه وإنْ كنا لا ندرك كل المعنى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه:١١٠]، لا يستطيع أحد أنْ يحيط بالله -سبحانه وتعالى-، لكننا ندرك أصل المعنى، فأصل الحياة معروف لنا، أصل الرحمة معروفة لنا، أما الكنه الحقيقي فيما يتعلق بالله -سبحانه وتعالى- فهذا ما لا يمكن.

سأدلل على ذلك مثلًا: نحن نؤمن باسم الله تعالى البصير الذي يشتق منه صفة البصر، فيلزمنا إذًا الإيمان بصفة البصر من حيث هي، ونؤمن بما اشتملت عليه هذه الصفة من المعنى؛ لأنّ معنى البصر هو إدراك المبصرات، فالله

بصير أي يدرك المبصرات –سبحانه وتعالى–، ونؤمن بأثر هذه الصفة المتعلقة بنا، يعني أثر هذه الصفة متعلق بالله –سبحانه وتعالى–، ثم ينعكس على إيماننا نحن.

الله –سبحانه وتعالى– بصير أثبتنا هذه الصفة، ثم آمنا بالمعنى العام وهو إدراك المبصرات، ثم نؤمن بأثر هذه الصفة وهو أنّ الله –سبحانه وتعالى– لا يعزب عنه شيء، يرى كل شيء –جل جلاله–، يرى النملة السوداء على الصفة السوداء في اللية الظلماء، يرى المتخفين في جنح الظالم، يرى الظاهرين البارزين، ويرى الذين في الأقبية والجب، ويرى يونس وهو في بطن الحوت في ظلمة الليل في ظلمة البحر في الظلمات الثلاث، لا يعزب عنه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

وهذا ينعكس عليه معنى وجداني وهو أنه بقدر علمك بصفات الله –تبارك وتعالى– تكون مراقبتك له، وبقدر علمك بصفات الله تعالى يكون التعظيم له، وبقدر العلم بصفات الله –سبحانه وتعالى– تكون الخشية منه –سبحانه وتعالى–.

ولذلك لما أثنى الله تعالى على الملائكة يخشون ربهم من فوقهم، فإنّ هذه الخشية إنما هي ناتجةٌ عن العلم به –سبحانه وتعالى–، وهو الذي مدح به النبيّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جبريل قال: «**رأيت جبريل ليلة عرج بي كالحلس البالي من خشية الله**»، على عظم خلقه وامتداد أجنحته مع ذلك يخافون ربهم من فوقهم لما يعلمون من أسمائه وصفاته وجلاله وعلوه وعظمته.

فينبغي أنْ يكون درس العقيدة أيضًا منعكس على الوجدان وعلى الإيمان بقدر ما يعرف العبد ربه –سبحانه وتعالى–، بقدر ما يعظمه ويهابه ويرجوه ويحبه ويخافه ويخشاه –جل وعلا–.

إذًا الإيمان بهذه الصفات إيمانٌ بها من حيث هي، إيمانٌ بما اشتملت عليه من أصل المعنى، وإيمانٌ بأثر هذه الصفة، وهذا أمر مهم.

ولذلك الإمام مالك لما جاءه الرجل وقال: "**يا أبا عبد الله، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، كيف استوى؟**" [٣٧:٠٩] –رحمه الله تعالى– وعلاه الرضحاء وقال: "**الاستواء معلوم والكيف غير معقول**"، يعني هذا

الاستواء له كيفية لكن كيفية لا نعقلها نحن، والإيمان به واجب إلى آخر الكلمة المشهورة التي ستلزمنا كثيرًا في باب الصفات؛ لأنها كالقاعدة من قواعد أهل السنَّة الكبرى قعدَّها الإمام مالك –رحمه الله تعالى–.

إذًا قال شيخ الإسلام: (وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ –صلى الله عليه وآله وسلم–)، **ولسائلٍ أنْ يقول: هل هذه البدهية هل هناك مَن خالف فيها حتى يحتاج أنْ يقررها شيخ الإسلام في هذا السطر؟**

نعم، هناك طوائف من المنتسبين لأهل القبلة المنتسبين لأهل الإسلام خالفوا في هذا الأصل، سيمر معنا في هذا القيد الذي ذكره –رحمه الله تعالى– حين قال: (مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ).

يعني لما ذَكَر –رحمه الله تعالى– أنّ من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله –صلى الله عليه وسلم–، بدأ يذكر هذه المحترزات، يعني نحن نؤمن بالصفة لكن هذا الإيمان بقيد، هذا القيد أنْ يكون إيمانًا من غير تحريف، أنْ يكون إيمانًا من غير تعطيل، أن يكون إيمانًا من غير تكييف، أنْ يكون إيمانًا من غير تمثيل، وكل واحدة من هذه الأربع لها مدلول، يعني ليس في كلام شيخ الإسلام هنا حشو، ليس من قبيل ذِكر المترادفات وإنّما كل كلمة لها مدلول.

فقوله –رحمه الله تعالى– في أول قيد: (مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ):

التحريف: هو حرف الكلام عن وجهه أو مأخوذ من الانحراف، وهو صرفه عن وجهه أو صرفه عن معناه إلى غيره، وهذا التحريف مذموم كما قال الله تعالى في شأن اليهود: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[النساء:٤٦]، والتحريف يقتضي التغيير والتبديل، **والتحريف في نصوص الصفات**: هو تغييرها أو تبديل ألفاظها أو تبديل معانيها عن ظواهرها.

وعليه فيمكن أنْ نقول: أنّ التحريف إما أنْ يكون في اللفظ وإما أنْ يكون في المعنى، تحريف اللفظ إما أنْ يكون بزيادة أو نقصان أو بتغيير حركة من حركات الإعراب.

والتحريف في المعنى: يكون بتغيير معنى الكلمة عن معناها المعهود في لغة العرب.

نعود إلى التحريف في اللفظ: التحريف في اللفظ قد يكون بزيادة، كما فعل اليهود -عليهم لعنة الله-، فإنّ الله تعالى أمرهم أنْ يقولوا كلمة فحرفوها، الله -عز وجل- قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[الأعراف:١٦١]، فقالوا: حنطة، وذمهم الله تعالى هذا يُسمى تحريف، ذمهم الله في كتابه فقال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾[الأعراف:١٦٢]، هذا تحريفٌ في اللفظ.

وورَد في الحديث أنهم قالوا: «حبة في شعيرة»، يعني بدل حطة قالوا: حبة في شعيرة أو قالوا: حنطة، أيًا ما كان فهذا هو التحريف، **ما دخل هذا النوع في باب الصفات؟**

دخل هذا النوع في باب الصفات أنّ المعتزلة والجهمية والأشاعرة ورثوا هذا التحريف عن اليهود عياذًا بالله، ففسروا قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، وقول الله -جل وعلا-: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤]، فحرفوه إلى استولى.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-:

أُمِـرَ اليَهُــودُ بِأَنْ يَقُولُــوا: حِطَّــةٌ … فَــأَبَوْا وَقَــالُوا: حِنطَــةٌ؛ لِهَــوَانِ

وكـذلك الجهمـي قيـل لـه استوى … فــأبى وزاد الحــــرف للنقصــــان

قال استوى استولى وذا من جهله … لغـــةً وعقــــلًا مــــا همــــا ســــيان

استوى غير استولى، لكن إذا فسد الأصل فسدت مخرجاته، الأصل عند المعتزلة والجهمية والأشاعرة فاسد، وعليه فالمخرجات تكون فاسدة حرفوا معنى استوى إلى استولى، واستدلوا ببيتٍ مصنوع:

قَـدِ اسْـتَوَى بِشْـرٌ عَلَـى الْعِـرَاقِ … مِـنْ غَـيْرِ سَـيْفٍ وَلَا دَمٍ مُهْـرَاقِ

وقالوا: إنّ معنى (**اسْتَوَى**) أي: استولى، ومعروف أنّ معنى استوى عند أهل السنَّة علا واستقر هذا المعنى العام، أما استواؤه -سبحانه وتعالى- فهو استواءٌ يليق بجلاله، فأصل المعنى قائم في الذهن معروف من لغة العرب، لكن الكيفية دائمًا لا نتحدث عنها؛ لأنّ لله -سبحانه وتعالى- كيفيةً لا ندركها.

معهد العلوم الشرعية العالمي

كذلك وقع التحريف في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]، فأراد البعض أنْ يحرفوها حتى تتسق مع منهجهم، وطلبوا من القارئ أنْ يقرأ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]، حتى يكون الذي كلم هو موسى يعني كأنّ الكلام وقع من موسى ولم يقع من الله -سبحانه وتعالى-.

هذا التحريف بتغيير الحركة؛ لأنهم لا يريدون إثبات صفة الكلام لله -سبحانه وتعالى-، فغيروا الحركة وجعلوا وكلَم الله موسى ليكون موسى هو المتكلم، والصحيح كما هو المتلو في الكتاب العزيز من سورة النساء ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]، فالله -سبحانه وتعالى- هو الفاعل للكلام جل وعز.

وقد يكون التحريف بتحريف المعنى دون تحريف المبنى، يعني البعض قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤]، فجعلوا الله -سبحانه وتعالى- كلم موسى لكن ليس الكلام الذي نعرفه، ذهبوا بعيدًا فقالوا: معناه جرحه بأظافير الحكمة تجريحًا، هذا من أبطل الباطل؛ لأنهم يريدون أنْ يحوروا معنى كلَّم التي هي الكلام إلى معنى كلَم من الكلم وهو الجرح، وهذا بعيدٌ جدًّا.

فأهل السنَّة يثبتون الصفات من غير تحريف، لا يزيدون في الحركة، ولا ينقصون في حركتها، وإنَّما يثبتون الكلمة اسمًا كانت أو صفةً كما هي دون تحريف، هذا التحريف من جهة اللفظ، وقد يقع التحريف من جهة المعنى، يعني لا يغيرون حركة ولا يضيفون ولا ينقصون، ولكنهم يغيرون المعنى.

ففي قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[الفاتحة:١]، مثلًا يقولون: إنّ الرحمة هنا هي إرادة الإحسان، **لماذا تفسرون الرحمة بإرادة الإحسان؟** لأنهم لا يثبتون لله هذا الوصف، وإنَّما يثبتون له أوصاف قليلة سبعة أوصاف منها الإرادة، فكل صفة يحورونها إلى الإرادة.

الغضب مثلًا يقولون: إرادة الانتقام، الرحمة إرادة الإنعام وهكذا، وهذا أيضًا تحريفٌ من جهة المعنى، ومثله أيضًا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤] أي: جرحه بأظافير الحكمة وهذا تفسيرٌ باطل.

سؤال قبل أنْ نتجاوز هذه الفقرة: هل كل مَن حرَّف يعد كافرًا؟ يعني هل كل تحريف نكفر به صاحبه؟ هذا سؤال مهم؛ لأنّ قضايا التكفير هي سبب كل بلايانا في العالم الإسلامي اليوم، هل كل تحريف يعد كفرًا؟

الإجابة: لا؛ ليس فقط بحسب النية والعلم، لا التكفير لولي الأمر في المعينين وهذا أيضًا سيمر معنا، وأحسنتم هذا أحد بلايانا ليس لكل أحد الآن يكفر، هناك فرق بين التكفير العام والتكفير المعين، يعني حين أقول: زيدٌ كافر؛ لأنه وقع به سبب من أسباب الكفر هذا أمر تكفير المعين، هذا لا يقوم به إلا ولي الأمر، ولا يكون إلا بعد الاستتابة وإلا بعد البيان والعلم.

لكن حين نقول: مَن أنكر حرفًا من كتاب الله فهو كافر، نحن هنا لا نكفر معينًا وإنَّما نكفر مَن وقع منه هذا الفعل، كل تحريف لا يعد كفرًا، أهل السنَّة لم يكَفروا الذين فسروا استوى بمعنى استولى؛ لأنّ التحريف في جميع الصفات كما فعل المعطلة من الجهمية وغيرهم هذا هو الذي يعد كفرًا، وأما الذين حرَّفوا بعضًا وتركوا بعضًا فإنّ من أهل العلم مَن التمس لهم المعاذير لحصول الشبهة في بعض ما حرَّفوه.

صحيح هذه الشبهة ليست قوية ولا تقتضي أنْ يصل بهم الأمر إلى التحريف، لكنها شبهةٌ تمنع من خلع لقب الكفر على مَن وقع منه ذلك، هذا في العموم، لكن لو وقع من آحاد النَّاس مثلًا قال إنْ استوى بمعنى استولى، فإنّ هذا يبين له ويُشرح له، وتحل له عقدة الشبهة، فإنْ أصر بعد ذلك فقد يختلف الحكم في حق هذا المعين.

إذًا أهل السنَّة لم يكفروا كل الذين حرَّفوا، وإنَّما كفروا الذين حرَّفوا الكل، فرق بين الاثنين لم يكفروا كل الذين حرَّفوا ولكنهم كفروا الذين حرَّفوا كل الصفات، فبعض التحريف قد لا يبلغ بصاحبه إلى حد التكفير، ولكن كل التحريف يصل بصاحبه إلى حد التكفير.

ثم قال –رحمه الله تعالى-: (**وَلاَ تَعْطِيلٍ**):

إذًا الكلمة الأولى أو المحترز الأول: بلا تحريف أهل السنَّة لا يحرفون، المبتدعة قد يحرفون إما في اللفظ وإما يحرفون في المعنى، وأهل السنَّة كذلك لا يعطِّلون الله عن صفاته، **والتعطيل في اللغة**: أصله من الإخلاء، قال الله تعالى: ﴿**وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ**﴾[الحج:٤٥] أي: متروكة خالية، فأهل السنَّة لا يخلون الله عن أسمائه وصفاته.

والتعطيل عند أهل العلم أنواع، وأعتقد أنّ الوقت لن يسعفنا في شرح أنواع التعطيل فنقف عند قوله: (**مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ**)، ونرجئ الكلام على التعطيل في المجلس القادم.

طبعًا أنا أشعر أنّ الغوص فيما يتعلق بقضايا الأسماء والصفات سيكون فيه بعض الإشكاليات أحيانًا، فنحتاج أنْ نعيد ونكرر في المعنى وأنْ نقعِّد بعض القواعد.

باب الصفات كان بابًا سهلًا، باب الأسماء كان بابًا سهلًا، لكن لما تدخل فيه الفلاسفة والمتكلمون فأجروا فيه ما ليس من كلام الشرع ذهبت هذه السهولة، السهولة هي في الوحيين كتابًا وسنة، النصوص واضحة جدًّا في كتاب الله في سنَّة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، لكن لما جاء هؤلاء الفلاسفة المتكلمين فأضافوا إلى هذا العلم النظريات العقلية تعقد قليلًا، واضطر أهل السنَّة أنْ يجاروهم وأنْ يشرحوا بعض هذه المتعلقات، وأنْ يجعلوا بعض المحترزات.

ولذلك سيمر معنا أنّ بعض مَن اشتغلوا في هذا العلم لما استمد بهم التيه في آخر حياة الواحد منهم قال: يا ليتني، أموت على عقائد عجائز نيسابور، عقائد العجائز التي ليس فيها تفصيل، اليوم لو سألنا العجائز في عقائدهم في أسماء الله وصفاته يؤمنون بها بالمجمل لا عندهم تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف، هم يؤمنون بقاعدة أهل السنَّة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدًى وبصيرةً وعلمًا، اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وقلبًا خاشعًا ولسانًا ذاكرًا.

تم إلقاؤه يوم السبت ٢٨ صفر ١٤٤١ هـ الموافق ٢٦\١٠\٢٠١٩

معهد العلوم الشرعية العالمي